﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

[مريم: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

توالت الأحداثُ في تحقيق المعجزة الخالدة

لَمّا استراب قومُ مريم في أَمرها، واستنكروا قضيّتَها، وقالوا لها ما قالوا، مُعَرِّضين بقَذْفها ورميها بالفِرْيَة، وقد كانت يومَ ذلك صائمةً صامتة، فأحالتِ الكلامَ على رضيعها، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا مُتَهَكِّمين بها، ظانّين أنَّها تزدري بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَشَارَتْ﴾: الإشارة تعبيرٌ عن معنًى في النَّفْسِ، وتكون بالكفِّ والأُصبع والعين[2]، والمُشيرَةُ: السَّبّابَةُ[3]، وأَشار الرَّجُلُ يُشيرُ إِشارَةً: إِذا أَوْمَأَ بيديْه، ويُقالُ: شَوَّرْت إليه بيَدي وأَشرت إليه، أَي: لَوَّحْت إليه، وأَلَحْتُ أَيضًا، وأَشار يُشير: إِذا ما وجَّه الرَّأْيَ[4]، والمرادُ بالإشارةِ في الآية: الإيماء.

2) ﴿الْمَهْدِ﴾: أصلُ (مهد) يَدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[5]، والمَهْدُ: التَّوثير، يُقال: مَهَّدتُ لنَفسي، ومَهَّدتُ: أَي جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا، ويُقال: مَهَدْتُ لنَفْسي خيرًا: أَي: هيَّأْتُه ووطّأْتُه[6]، والمَهْدُ أيضًا: للصَّبيِّ، وكذلك المَوْضِعُ إِذا مُهِّدَ ووُطِّئَ[7]، والمِهادُ اسْمٌ أَجمَعُ مِنَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 9/ 241.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شور).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شور).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شور).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (مهد).

المَهْد، كالأرض جَعلها اللّهُ مهادًا للعباد، وجمعُ المِهاد: مُهُد وأَمهِدة ومهود[1]، والمُرادُ بالمَهْدِ في الآيةِ: فِراشُ الصَّبيِّ وما يمهد لوضعه[2].

3) ﴿صَبِيًّا﴾: أصلُ (صبو) يدلُّ على انحدارٍ أو ميلٍ متدرِّج إلى أسفل، ومِن ذلك الصَّبي: الولدُ من لَدُن يولَدُ إلى أن يُفْطَم؛ لصِغر بدنه بالنِّسبة للبالغين، فهو منخفض كالمُنحَدر[3]، والصِّبْوة والصِّبْيَة: جمعُ صَبيٍّ، والواوُ هوَ القياسُ وإن كانَتِ الياءُ أكثرَ اسْتِعْمالًا، والمَصْدَرُ الصِّبا[4]، ويجمع أيضًا: صبيان، وصبْوان بضَمّ الصّاد وكسرها، ويقال للغلمان: صِبيان، يُقالُ: رأَيتُه في صِباهُ، أَي: في صِغَرِه، وقالَ غَيْرُهُ: رأَيتُه في صَبائِه، أَي: في صِغَره[5]، والصَّبيُّ: لفظ يستوي في المُذكَّر والمُؤنَّث، والمُرادُ به في الآية: المولودُ مِن لَدُن يولَدُ إلى أن يُفْطَم[6].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مريم عليها السلام تبدأ بالدِّفاع عن نفسها عن طريق وليدها

حينما جاءت مريمُ إلى قومها لم تُكَلِّمهم، وإنّما أشارت إلى ابنِها عيسى أنْ كَلِّموه؛ ليُجيبَهم بدلًا منها؛ لأنَّها نذرت للرَّحمن صومًا عنِ الكلام، فقال قَومُ مَريمَ مُنكِرينَ عليها، ومُتهكِّمين بها، ظانّين أنَّها تزدري بهم وتهزأ: كيف نكَلِّمُ رَضيعًا لا يزالُ في فِراشِه، وليس في استطاعتِه الكَلامُ؟![7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾:

سُرْعة الإشارة لسُرْعة الجواب

دلَّ العطفُ بالفاء على سُرعة صدورِ تلك الإشارة عن مريمَ فوْرَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (مهد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 97.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صبو).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صبو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صبو).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 526، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 373، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 492.

تعيير قومِها لها، فبِمُجرَّد صدورِ قولهم كانت إشارتُها إلى وليدها؛ ليَنطقَ ببراءتها، فمَعَ كمالِ استعدادها لمواجهتهم، وتهيُّئِها مِن قِبَلِ ربّها الرّحمن لذلك، لم تُطِقْ ما سمعته منهم؛ شأنُها شأنُ كلِّ حُرَّةٍ أَبيَّةٍ؛ فأَعْقَبَتْ قولَهم بما بعد الفاء مِن غير مُهلة.

الغرض مِن إضمار الفاعل:

أُضمِرَ الفاعلُ في قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّه لا يتعلَّق غرضٌ بذِكره، وللعِلْم به، فظاهر الحال والمقال يُشيران إلى الفاعل، وهو مريم.

عِلَّة فصْل جملة: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلت جملة: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ عمّا قبلَها؛ للاستئناف البيانيّ؛ حيثُ إنَّ النُّفوس تتشوف لمعرفة رَدّ فِعْل قومها مِن إحالتهم إلى طفلٍ حديثِ الولادة؛ ليوَجِّهوا إليه الكلامَ ويصرفوه عنه، وهُم إنَّما وجَّهوا إليها السُّؤال ولم يسألوا الرَّضيع؛ لذلك فُصِلت الجملة عن سابقتها كما يُفصل الجواب عنِ السّوال الصَّريح[1]، وهذا ما يُسمّيه البلاغيّون: شبه كمالِ الاتِّصال.

تَشَوُّف النُّفوس إلى معرفة موقفِ قومِها بعد إشارتها إلى رضيعها

الغرض مِنَ التَّعبير بمقول القول جملة استفهاميّة ﴿كَيْفَ﴾:

﴿كَيْفَ﴾ للسُّؤال عنِ الحال بقصد نفي ذلك الحال، وقد كَنَّى قومُ مريمَ عليها السلام بنفي السُّؤال عن نَفْي المُسْتَفهَم عنه، وهو تكليم الأطفال الذين هُم في المَهْد[2].

غَرَضُ الاستفهام في قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾:

والغرض مِنَ الاستفهام في قوله: ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ التَّعجُّبُ والدَّهشةُ؛ حيثُ أحالت مريمُ رَدَّها إلى رضيعها الذي تحمله بين يديها؛ لذا تعجَّب قومُها مِن تلك الإحالة؛ لامتناع الكلامِ مع مَن هو في المَهد رضيعًا عقْلًا وعادة.

يمتنع الكلام عقلًا وعادة مع مَن هُم في المَهد

(1) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 272.
(2) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 272.

دلالة كلمة ﴿نُكَلِّمُ﴾:

الإشارة إلى موضع الاستنكار

قوله: ﴿نُكَلِّمُ﴾ حكاية حالٍ ماضية، و﴿مَن﴾ موصوفة، والتَّقدير: (كيف نُكَلِّم الموصوفين بأنَّهم في المَهْد؟!) وهذا التّكليم المطلوب منهم بإشارة مريم إلى عيسى، هو موضعُ الاستنكار والتّعجّب، وهو مؤسّس على قوله: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾، فمَوطِن الاستنكار مجموع ذلك، أي: أنَّ استنكار القوم كان لأمرين: كونُه في المهد، وكونه صَبيًّا، والمراد بالمَهْد: الحِجْر، سواء أكان سريرًا أم وسادةً أم غيرهما.

دلالة ﴿مَن﴾ وموقعها الإعرابي:

ألق الحاضر مشروط بالماضي

﴿مَن﴾ في جملة: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ موصوفة، أو اسم موصول في محل نصب مفعول ﴿نُكَلِّمُ﴾، يفيد العموم بخلاف (الذي).

وقد يجوز فيها أن تكون شرطية ويكون التقدير: (من كان في المهد فكيف نكلمه)[1]، والتعبير بالشرطية في الماضي ﴿مَن كَانَ﴾ بمعنى المستقبل في باب الجزاء، فتندفع المقابلة بين الفعل المضارع ﴿نُكَلِّمُ﴾ وبين الفعل الماضي ﴿كَانَ﴾، ويزول الإشكال فيه[2].

دلالة السياق في التعبير بـ ﴿كَانَ﴾:

حالُ المعنى سياقٌ للفظه ونظمه

مجيء الجملة الاسمية المنسوخة بـ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يُفيد اعتبار الاستمرار والدوام، ويكون بمعنى ثبوت الخبر في الماضي المبهم قريبِهِ وبَعيدِه من غير انقطاع له، وهي هنا للزَّمن القريب خاصّةً بقرينة السّياقِ والتّعجُّب، والغرضُ استمراره على حاله، وهو أوكد مِمَّن هو في المهد؛ لأنَّ ما سبق من مشاهدات في المهد تدلّ على عدم إمكانية الكلام[3].

دلالة التَّعبير بالكَوْن وحرفِ الظَّرفيّة:

علَّةُ إنكارِ قومِ مريم ودهشتِهم مِن إحالتها

التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ، وحرف الظَّرفية في قوله: ﴿مَن كَانَ فِي

(1) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 328.
(2) الشِّهاب الخفاجيّ، عِناية القاضي: 6/ 154.
(3) الشِّهاب الخفاجيّ، عِناية القاضي، والقونوي، حاشيته على تفسير البَيْضاوي: 6/ 155.

﴿ٱلْمَهْدِ﴾؛ للدّلالَةِ على تَمَكُّنِ المَظْروفيَّةِ ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ مِن هَذا الَّذي أُحيلوا على مُكالَمَتِه، وذَلِكَ مُبالَغَةٌ مِنهم في الإنْكارِ، وتَعَجُّبٌ مِن اسْتِخْفافِها بهِم[1]؛ حيثُ ذكروا سَبب إنكارهم وتعجُّبهم.

سِرُّ تقديم شِبه الجملة ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ على الحال:

المَهْدُ: فِراشُ الصَّبيّ، وما يُمَهَّدُ لوَضْعِهِ، وقَوْلُه: ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾ خَبَرُ ﴿مَن﴾ المَوْصولَةِ، و﴿صَبِيًّا﴾ حالٌ مِن اسْمِ المَوْصولِ، وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على الحال؛ لأنَّه الأهمّ في مناط التَّعجيب والدَّهشة، وقد أخرج قوم مريم الأمرَ مَخْرَج العموم، أي: أنَّ كُلَّ مَن كان في المَهد مِن حديثي الولادة يمنع العقلُ والعادَّة كلامَ العقلاء معهم؛ لأنَّهم لا يُدركون شيئًا، ويدخل فيهم رضيعُ مريمَ دخولًا أوَّليًّا، والتَّعبير كُلُّه كنايةٌ عنِ استحالة التَّكلُّم، حيثُ نَصبوا دليلًا على دعواهم[2].

التَّعبيرُ كنايةٌ عنِ استحالة تَكَلُّم مَن كان في المَهْد

غرض التَّنكير في ﴿صَبِيًّا﴾:

التَّنكير في ﴿صَبِيًّا﴾ لإرادة النَّوع، بمعنى: أنَّ عيسى صبيٌّ مِنَ الصِّبيان الذين ما زالوا في المَهد، فكيف نُكَلِّمه؟! ويمكن أن يكون الغرض مِنَ التَّنكير: التَّهويل، وهذا يتوافق مع تعجُّب قوم مريم، واندهاشِهم، وإنكارِهم عليها أن يُكلِّموا صبيًّا.

التَّنكير بين إرادة النَّوع والتَّهويل

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطِّفل والصّبيّ والرّضيع:

الطِّفل: اسم يقع على الولد الصّغير مِنَ الإنسان، ويكون الطِّفل بلفظ واحد للمُذَكّر والمُؤنّث والجمع، قال تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 31]، ويجوز المطابقة في التّثنية والجمع والتّأنيث، فيقال: طِفلة وأطفال وطِفلات، ويبقى هذا الاسم

الطِّفل الصّغير مِنَ الإنسان إلى التّمييز، والصّبيّ مِنَ الولادة إلى الفطام، والرّضيع المُرْضَع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 97.
(2) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 273.

للولد حتى يُميّز، ثمّ لا يقال له بعد ذلك طفل بل صبيّ، والطَّفْلُ: الصَّغيرُ من كُلِّ شَيءٍ، والنّاعمُ، يقال: جاريةٌ طَفْلَةٌ، أي: ناعمة[1].

والصَّبيُّ: الغلام من الولادة إلى الفطام، ويجمع على: صبية وصبيان وأَصْبيَةٌ وصِبْوةٌ، ويقال للجارية: صبيّة وصبيٌّ، وتجمع على صبايا[2]، وقد ورد هذا اللّفظ في القرآن الكريم مرَّتين، جاءا في سورة مريم، وهما قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]، وقوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾.

والرَّضيع: الرَّضيعُ المُرْضَع، أَصْلُ المادَّة يدلُّ على شُرْب اللَّبَن مِنَ الضَّرْعِ أَوِ الثَّدْيِ[3]، ولم يَرِد هذا اللّفظ صراحةً في الاستعمال القرآنيّ، ومِن شواهد مادَّته في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (طفل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صبا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رضع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»